

المحاضرة الثالثة عشر: تأثير المكان في السرد السينمائي واستخدامه كعنصر درامي

المكان في السينما:

المكان في السينما ليس مجرد خلفية ثابتة للأحداث؛ بل هو عنصر أساسي يسهم بشكل كبير في تطوير السرد السينمائي وتعزيز التجربة الجمالية والفكرية للعمل الفني. إنّ المكان يُعدّ جزءاً لا يتجزأ من القصة، إذ يمكن أن يعكس حالة نفسية للشخصيات أو يعزز من التأثير العاطفي للمشاهد. فالمكان في السينما يمكن أن يكون معيّراً عن هوية الشخصيات، قد يكون ساحة صراع داخلي، أو عنصراً يعمل على تحفيز تنامي الأحداث الدرامية.

التعامل مع المكان في السينما يمتد ليشمل أنواعاً مختلفة من الأماكن: من الأماكن الطبيعية إلى الأماكن الحضرية، من الأماكن المغلقة إلى الأماكن المفتوحة، وحتى الأماكن الخيالية في أفلام الخيال العلمي. ومع ذلك، تختلف أهمية المكان من فيلم لآخر؛ فقد يكون له دور محوري في بعض الأفلام أو يظهر بشكل خلفي في أفلام أخرى. ولكن، لا يمكن إنكار الدور الحاسم الذي يلعبه المكان في تعزيز معاني الفيلم وجعل القصة أكثر واقعية، أو حتى في نقل بعض المعاني الفلسفية العميقـة.²²

أنماط المكان في السينما:

1. المكان الحي (Living Space) :

هو المكان الذي يتفاعل فيه الشخصيات بشكل مستمر. يمثل بيئة مأهولة للشخصيات والتي تكون مليئة بالعواطف والذكريات. في هذا النوع من الأماكن، يشعر المشاهد بأن المكان يتنفس مع الشخصيات وتنعاقب فيه الأحداث بتأثيرات نفسية قوية.

مثال: في فيلم (1980) *The Shining* للمخرج ستانلي كوبريك، يُعد الفندق المهجور الذي يقع في جبال كولورادو عنصراً أساسياً في الفيلم. يمثل الفندق مكاناً مغلقاً ومحاطاً بالعزلة، ويعكس حالة الضياع الذهني والتدهور النفسي للشخصية الرئيسية "جاك". المكث الطويل في هذا المكان يشكل صراغاً داخلياً للشخصية مما يزيد من توتر الفيلم، و يجعله عنصراً رئيسياً في تنامي الحبكة.

2. المكان الرمزي (Symbolic Space) :

في بعض الأفلام، لا يتم استخدام المكان ك مجرد موقع جغرافي؛ بل يصبح له طابع رمزي يضفي بعداً فلسفياً أو اجتماعياً على الأحداث. قد يكون المكان رمزاً من خلال الألوان، والتصاميم، وأحياناً من خلال تناقضات مكانية تشير إلى صراع داخلي أو خارجي.

مثال: في فيلم (2014) *The Grand Budapest Hotel* للمخرج ويس آندرسون، يمثل الفندق الفاخر مكاناً رمزاً يرمز إلى انحلال المجتمع الأرستقراطي في أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية. الفندق بدبيكوره الفخم ينعكس على الشخصيات التي تعيش فيه والتي تتنقل بين الفخامة والإنهيار. استخدام المكان الرمزي يسهم في تطوير القصة ويعزز من الطابع الفاسدي للفيلم.

3. المكان كدلالة اجتماعية (Social Space) :

المكان في بعض الأفلام يمكن أن يكون حاملاً لمعاني اجتماعية، حيث يعكس الطبقات الاجتماعية، التوترات العرقية أو السياسية، أو الهويات الثقافية. في هذه الحالة، يكون المكان أكثر من مجرد خلفية للأحداث، بل جزءاً أساسياً لفهم الشخصيات ودراويفهم.

²² نادر سالم، *المكان في السينما: دراسة في دلالاته وتوظيفه*، الطبعة الأولى، 2017، القاهرة: دار السينما العربية، ص. 128.

مثال: فيلم (Parasite) (2019) للمخرج بونغ جون هو هو مثال على كيفية استخدام المكان كدلالة اجتماعية. يظهر التباين الحاد بين الطبقة العليا والطبقة السفلية من خلال تصميم المنازل. منزل العائلة الثرية يقع في حي فاخر بمساحات واسعة وأسطح مكشوفة، بينما يعيش أفراد العائلة الفقيرة في شقة صغيرة ومقلقة تحت الأرض. هذه الأمكانية تُظهر التفاوت الاجتماعي وتساهم في تطوير الحبكة وتصعيد التوتر بين الشخصيات.

تأثير المكان على الشخصيات:

1. المكان لتطور الشخصية:

قد يكون المكان في بعض الأحيان عاملًا محوريًا في تطور شخصية معينة أو في تغيير توجهاتها. غالباً ما ترتبط الشخصية بمكان معين يمارس فيه صراعاتها النفسية، أو يمر فيه بتجارب حياتية عميقة تؤثر على مصيرها.

مثال: في فيلم (Lost in Translation) (2003) للمخرج صوفيا كوبولا، تُظهر العلاقة بين الشخصيتين الرئيسيتين، "بيل موري" و"سكارليت جوهانسون"، تناقضها داخل المدينة الضخمة "طوكيو". المدينة تصبح المكان الذي يعكس مشاعر الغربة والوحدة التي يعيشها كلا الشخصين في وسط عالم لا يمكنهما التكيف معه. طوكيو بكل تنوّعها وضخامتها تصبح رمزاً للعزلة والتبعاد بين الشخصيات.

2. المكان كمساحة للحرية أو القيد:

يُستخدم المكان في بعض الأفلام لتعبير عن حالة شخصية من حيث الحرية أو القيد. قد يكون المكان محاطاً بالقيود مثل السجون أو الغرف المغلقة، بينما في أفلام أخرى يُعتبر المكان مساحة للحركة والانطلاق.

مثال: في فيلم (The Shawshank Redemption) (1994) للمخرج فرانك دارابونت، يُظهر السجن كمكان قيد لحرية "أندي دوفرين" الذي يسعى للحرية طيلة الفيلم. السجن ليس مجرد مكان لاحتجاز الأفراد، بل يستخدم كمكان يبرز الصراع النفسي للشخصية. وعندما يبدأ "أندي" في تحقيق حرية روحية من خلال الفن والعقل، يتغير معنى المكان ويصبح جزءاً من حريته الداخلية.

المكان والزمان: العلاقة بين المكان والزمن في السينما

التركيب السينمائي لا يعتمد فقط على المكان كعنصر ثابت، بل إن العلاقة بين المكان والزمن تلعب دوراً مهماً في توجيه السرد. يتم استخدام المكان لتحديد الإيقاع الزمني للأحداث أو لتسريع التوتر أو حتى لتفقيصه.

1. المكان كعائق زمني:

في بعض الأفلام، يُستخدم المكان كأداة لتمديد الزمن أو تعليقه. مثلاً، في الأفلام التي تدور حول العزلة أو الحبس، قد يكون المكان سبباً رئيسياً في تجميد الزمن في ذهن الشخصية.

مثال: في فيلم (Gravity) (2013) للمخرج ألفونسو كوارون، المكان الفضائي الخالي من الجاذبية يعكس الحالة النفسية الشخصية "ساندرا بولوك" التي تقاوم من أجل البقاء. في هذا المكان اللامتناهي، يصبح الزمن غير واضح، مما يساهم في زيادة الفرق والتوتر في الفيلم.

المكان في السينما ليس مجرد موقع جغرافي؛ بل هو جزء أساسي من السرد الفني. من خلال تنوع أنماطه واستخدامه كأداة درامية، يمكن للمخرج أن يعمق معاني الفيلم ويوثر في تفسير المشاهدين للأحداث والشخصيات. سواء كان المكان حيّاً يساهم في تطور الشخصيات، أو رمزاً دلائياً يعكس القضايا الاجتماعية، أو حتى مكاناً معزولاً يعكس صراعاً داخلياً، فإنه يبقى جزءاً لا يتجزأ من التجربة السينمائية.²³

²³ سامي حمدي، المكان في السينما: أبعاده النفسية والدرامية، الطبعة الثانية، 2019، بيروت: دار الفنون السينمائية، ص.